تفسير سورة يوسف عليه السلام

وبيانه ما اشتملت عليه من أصول تعبير الرؤيا

ومكارم الأخلاق

وهو نص محاضرتين ألقاهما فضيلة الأستاذ المرحوم
الشيخ عبد العال على سالمان قاضي محكمة مصر الشرعية
في جمعية الشبان المسلمين بالقلعة البيضاء
في ٣٠/١١/١٩٣٧ وفي ٢٨/٩/١٩٣٨

نمرة ١٦٥٣ م — ١٩٤٦ م

مطبعة الفتح لصاحبها علي محمد طه ٧ شارع خيرت السيدة زينب مصر

تفسير سورة يوسف عليه السلام

وبيان ما اشتملت عليه من أصول تعبير الرؤيا

ومكارم الأخلاق

وهو نص محاضرتين ألقاهما فضيلة الأستاذ المرحوم
الشيخ عبد العال على سالمان قاضى محكمة مصر الشرعية
فى جمعية الشبان المسلمين بالقلعة
فى ٣٠/١١/١٩٣٧ وفى ٢٨/٩/١٩٣٨

سنة ١٣٥٣ هـ — ١٩٤٦ م

مطبعة الفتح لصاحبها على طلعت ٧ شارع فيرت الرقيق

الحمد لله اقرارا بنعمته . ولا إله إلا الله اخلاصا بوحدانيته . وصلى الله على سيدنا محمد عبده ونبيه ورسوله وخير بريته . . . وبعد : فهذه صفحات محاضرة كان ألقاها فضيلة المرحوم الأستاذ الشيخ « **عبد العال على سالمان** » وكان شديد الرغبة فى نشرها لابقاء أثر من آثاره ولاذاعة جانب من تفكيره ونشر شذى من عطر ايمانه . فلما فارق الحياة ، رأيت أن خير تحية تحيا بها روحه ، نشر محاضرته والقيام بما كان سيقوم به لو كان حيا . أقدمها لا على أنها بحث عميق من أبحاثه ولا على أنها مؤلف أفنى جانبا من العمر فى تأليفه بل على أنها محاضرة قيمة ألقاها فى ساعتين على مرتين — دفاعا عن فكرة ونشرا . لمبدء . وما أسعدنا نحن المؤلفين يوم نجد من يعنى بنشر أفكارنا بعد مماتنا . وبالوفاء لنا بعد رحيلنا ! والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

منشية البكرى فى (٢٣ جمادى الأخرى سنة ١٣٦٥ هـ محمود على قراعة
(٢٤ مايو سنة ١٩٤٦ م

(فضيلة المرحوم الشيخ عبد العال على سالمان القاضى الشرعى)

بسم الله الرحمن الرحيم

علمت بأن كاتبة إنكليزيه انتقدت وجود قصة يوسف فى القرآن الكريم وقالت :لا معنى لوجود هذه القصة الغرامية فى الدين لأنه يشتمل على الكمال والمثل العليا ، ولولم تذكر هذه السورة فى القرآن لكان حسنا ! فأحببت أن ألقى كلمة فى تفسير هذه القصة وفى الرد عليها فأقول : سورة يوسف عليه السلام تشتمل على مباحث رئيسية وأخرى فرعية ، أما المباحث الرئيسية فيها فثلاثة (١) قصة يوسف مع امرأة العزيز (٢) مقابلة اخوة يوسف له وعفوه عنهم (٣) علم الرسول عليه الصلاة والسلام والأمة الأسلامية بهذا القصص ليعلمنا الرسول بما جاء فيه ولنسلك فى حياتنا الخاصة والعامة مسلك هذا النبي الكريم يوسف عليه السلام وموقفه المشرف ، وما سوى هذا فمباحث فرعية جاءت تمهيدا أو استطرادا وتبعا لهذه المباحث الثلاثة .

هذه السورة مكية إلا الآيات الأولى والثانية والثالثة وهى قوله تعالى « الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ، نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » والآية السابعة وهى قوله تعالى « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين » فانها مدنية . وآياتها مائة واحدى عشرة آية . وسبب نزولها أن اليهود ملأوا الدنيا افتراء على سيدنا يوسف ونسبوا إليه مالا يجوز ، وقالوا للمشركين سلوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وسلوه عن

قصة يوسف وما جرى له ، فأنزل الله هذه السورة التى يقول فى أولها « نحن نقص عليك أحسن القصص (نبين لك أحسن البيان) بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين (أى الغافلين عنه الذين لا يعلمون به) « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » رأيت هنا من الرؤيا أى رأيت فى المنام أما رأى البصريه فهى من الرؤية بالهاء . ولنعلم أولا أن يعقوب عليه السلام تزوج امرأة تدعى ليا فولدت له ستة أولاد وولد له أربعة من أمتين كانتا له ، ثم توفيت زوجته ليا فتزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف فقط . وأكبر أولاده يهوذا كما أن أصغرهم يوسف عليه السلام

وتعبير هذه الرؤيا أن الكواكب الأحد عشر هم اخوته والشمس والقمر أبوه وأمه ، كما سيأتى ذلك فى آخر السورة فى قوله تعالى « وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا » فقال له أبوه يعقوب يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك (إن قصصتها عليهم) . عرف يعقوب أن الله يصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين فخاف عليه حسد الاخوة إن الشيطان للا نسان عدو مبين : فيحملهم على الحسد والكيد ! « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث » وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا « ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب » وقد وصل الله لآل يعقوب نعمة الدنيا بنعيم الآخرة حيث جعلهم فى الدنيا ملوكا وأنبياء وفى الآخرة من المقربين . ومركز يوسف عليه السلام فى الأنبياء ، كمركز داود وسليمان آباهم

الله الملك والحكمة ليعلموا الناس كيف ينفقون أموالهم فى الخير ويقيمون العدل فى الرعية بطريقة عملية ، وبعبارة أخرى تطبيق العلم على العمل وهذا أبلغ فى الاقتداء بهم والأصغاء لقولهم .

قال الله تعالى فى كتابه الكريم « إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة. إن أبانا لفى ضلال مبين » (أى غلط فى تدبير أمور الدنيا ولو وصفوه بالضلالة فى الدين لكفروا) « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا » (أى أجعلوه فى أرض مجهولة بعيدة عن العمران) « يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين » قال قائل منهم (وهو يهوذا أكبرهم سنا وكان أحسنهم فيه رأيا) لا تقتلوا يوسف (فأن القتل عظيم) وألقوه فى غيابت الجب (أى فى قعر البئر) يلتقطه بعض السيارة (وبذلك تخلصون منه بدون جرم عظيم)

قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون . قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب (وجواب لما محذوف تقديره فعلوا به ما فعلوا من الأذى) فأنهم لما أرادوا إلقاءه فى البئر تعلق بثيابهم فنزعوها من يده فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم وأدلوه فى البئر وكان فيها ماء فسقط فيه ثم آوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكى وكانت سنه عليه السلام وقتئذ اثنى عشرة سنة ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام وفى هذا يقول الرواة إن إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار جرد عن ثيابه

فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، فدفعه ابراهيم إلى اسحاق واسحاق إلى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة علقها فى عنق يوسف تبركا فأخرجه جبريل وألبسه ليوسف — رجع اخوة يوسف إلى أبيهم عشاء يبكون ولم يجسروا على مقابلته فى النهار وآثروا مقابلته ليلا ليمكنهم التستر فى هذا الاعتذار - قال الأعمش لا تصدق باكية بعد اخوة يوسف ، فلما سمع صوتهم فزع وقال مالكم يابنى هل أصابكم فى غنمكم شئ ؟ - قالوا : لا ! قال فما بالكم وأين يوسف قالوا إنا ذهبنا نتسابق فى العدو وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولوكنا صادقين وجاء واعلى قميصه بدم كذب . وفاتهم أن يمزقوا القميص فقال يعقوب وأين قميص يوسف فأخذه وألقاه على وجهه وبكى وقال مارأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه وقالوا كان فى قميص يوسف ثلاث آيات :-

(١) كان دليلا ليعقوب على كذبهم حيث إنهم لم يمزقوه

(٢) والقاه على وجهه فارتد بصيرا

(٣) وكان دليلا على براءة يوسف حين قد من دبره

بعد ذلك قال يعقوب فصبر جميل ، والصبر الجميل هو الذى لاشكوى معه ولو إلى الله ، لأن الشكوى إلى الله عند هؤلاء الأخيار من تحصيل الحاصل فعلمه محيط بكل شيء ويعلم السر وأخفى . وقد روى عن ابراهيم عليه السلام أنه حين ألقى فى النار جاءه جبريل فقال له ألك حاجة قال أما إليك فلا وأما إلى الله فنعم فقال له أو ما تسأل الله حاجتك فقال علمه بحالى يغنى عن

سؤالى ومثل هذا يكون الأيمان بالله ، والصفح الجميل هو الذى لا عتاب معه والهجر الجميل هو الذى لا أذى معه ولو باللسان ، وكلها وردت فى القرآن قال الله تعالى « فصبر جميل » وقال تعالى فى سورة الحجر مخاطبا نبيه الكريم فاصفح الصفح الجميل » وقال فى سورة المزمل « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا »

بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف فى الجب جاءت سيارة تسير من قبل مدين إلى مصر فأخطأوا الطريق فنزلوا قريبا منه وكان الجب فى قفرة بعيدة عن العمران وكان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه يوسف فأرسلوا واردهم ليستقى لهم الماء فأدلى دلوه فى البئر فتعلق به يوسف فنزعوه ، قال يابشرى هذا غلام ودنا من أصابه يبشرهم به وأسروه أى أخفوه من باقى القافلة وقالوا هذا غلام لناقد أبق فاشتروه منا بضاعة أى متاعا وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه وباعوه لهم بثمن بخمس دراهم معدودة وكانت عشرين درهما أى ما يوازى بالعملة المصرية الآن ٤٥ قرشا تقريبا ولذلك قال الله تعالى حكاية عن فعلهم هذا وكانوا فيه من الزاهدين « باعوه بأرخص ثمن لأنهم اعتقدوا فيه أنه عبد آبق ولا قيمة للآبق عندهم ، والذين اشتروه باعوه لعزيز مصر بوزنه فضة ووزنه حريرا ووزنه مسكا فكانت صفقة رابحة لهم .

وقف معى هنا هنيهة أمام تدبير الخالق جل وعلا وقدرته فأخوة يوسف رموه فى بئر مظلمة فى صحراء مقفرة ليموت بها ، هذا من غير شك سبب عادى للهلاك ولكن ماجعلوه سببا للهلاك جعله الله سببا للعظمة والمجد فصار بفضل

إلقائه فى البئر ملكا على مصر ولله در من قال الخير والشر مقرونان فى قرن . اشتراه عزيز مصر وكان اسمه قطفير وكان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد ، وكانت سن يوسف سبع عشرة سنة وأقام فى بيت العزيز ثلاث عشرة سنة ، وقال لامرأته « أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » بعد هذا : راودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » اختلف المفسرون فى معنى هذه الآيه على عدة أقوال : ولقد همت به هم عزم على فعل الفحشاء ، وهم بها هم الطباع مع الامتناع لولا أن رأى برهان ربه لكان ما كان !

وقد نسب بعضهم إلى يوسف عليه السلام أنه مال إلى طلب امرأة العزيز وكاد يفعل ، أو أنه أراد مخالطتها وقعد منها مقعد الرجل من المرأة إلا أنه انصرف عنها لأنه رأى معصما ظهر من بين الجدران منفردا عن الجسم مكتوبا عليه إياك والزنا أولأنه رأى سقف البيت قد انفرج وظهر له وجه أبيه يعقوب عاضا على أصبعه أو لأنه سمع نداء ينهاه عن الزنا فلم ينتبه فسمع نداء ثانيا فلم ينتبه فسمع نداء ثالثا كذلك إلى آخر هذه المفتريات التى شوهت بها محاسن التفاسير ، وليس لهذه الأقاويل والحمد لله فى كتب الأحاديث الصحيحة أصل ولا أية إشارة .

وهذا التفسير ضعيف جدا بل هو باطل لا يلتفت اليه للأسباب الآتية

(١) قال الله تعالى قبل هذه الآية « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث » واجتباؤه واصطفاؤه ينافى وقوع هذا الهم منه .

(٢) إيحاؤه إليه فى الجب وقد كان صغيراً فى قوله تعالى « وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا » وهذا يدل على أن الله يحفظه من كل ما يشين

(٣) ايتاؤه الحكم « العلم فى قوله تعالى « ولما بلغ اشده آتيناه حكما وعلما »

(٤) وصفه بالاحسان فى قوله تعالى « وكذلك نجزى المحسنين »

(٥) أن الله تعالى قال كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء (ولو حصل منه هم لما كان مصروفاً عن ذلك)

(٦) مدحه الله بقوله « إنه من عبادنا المخلصين » أى أنه أخلص لله فى عمله

(٧) جوابه لامرأة العزيز فى هذا المقام مما يدل على شدة ثباته فى هذا الموطن الحرج بقوله لها : إنه ربى (أى سيدى فلا يصح أن أخونه) أحسن مثواى (فلا يليق أن أقابل إحسانه بالأساءة إليه فى شخص زوجته) إنه لا يفلح الظالمون (لأنفسهم والظالمون للناس)

(٨) قول امرأة العزيز فى شأنه « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » والاستعصام يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه فى عصمة وهو يجتهد فى الاستزادة منها .

(٩) الدليل الساطع على أن يوسف عليه السلام لم يخطر بباله شىء من هذا اعتراف النسوة وامرأة العزيز فى قوله تعالى « ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه . قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز الآن

حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين (ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة واعترافهن بذلك ! والاعتراف سيد الأدلة كما يقولون ، فقال يوسف : ذلك ليعلم (العزيز) أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لايهدى كيد الخائنين ، والتفسير الصحيح أن تقول ولقد همت به هم فعل ويوسف لم يحصل منه هم أبدا وقوله تعالى وهم بها جواب لولا مقدم عليها وترتيب الكلام هكذا : ولقد همت به لولا أن رأى برهان ربه لهم بها لكنه لم يهم . هذا التفسير جميل ويضعفه شيء واحد وهو أن علماء النحو قالوا إن جواب لولا، لايتقدم عليها

أحسن التفاسير وأجودها أن نقول ولقد همت به هم فعل الفحشاء وهم بها هم السوء يريد ضربها كرفع يده مثلا ليدفع عن نفسه يدل لهذا قوله تعالى ، كذلك لنصرف عنه السوء (الذى أراده بها) والفحشاء (التى أرادتها به) لولا أن رأى برهان ربه (الرب هنا السيد والبرهان العلامة . وعلى عادة الملوك والأمراء قبل حضورهم إلى منازلهم تكون لهم علامة يعرف بها حضورهم كرفع راية مثلا أو وجود شخص يعدو أمامه . فيوسف عليه السلام لولا أن رأى علامة حضور صاحب البيت لنفذ ما أراده فعلا من السوء بها وإساءة المرأة خصوصاً امرأة العزيز ليست بالامر الهين بل تقوم لها الأمة وتقعد ويذاق بسببها ألوان العذاب .

ولو كان هم يوسف كهم امرأة العزيز لقال الله تعالى كذلك لنصرف عنه الفحشاء ولم تكن هناك فائدة لذكر كلمة السوء فكل من الكلمتين تؤدى

معنى غير الذى تؤديه الأخرى ، والسوء هو الأمر المكروه لذلك قال الله تعالى كذلك لنصرف عنه السوء (الذى أراده بامرأة العزيز وهم أن يفعله بها) والفحشاء (التى همت أن تفعلها به)

ثم ذكرت الآيات بعد ذلك أنهما تسابقا إلى الباب فيوسف يريد الهرب منها وهى تسرع وراءه لتمنعه وجذبته فقدت قميصه من الخلف ووجدا سيدها لدى الباب قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أوعذاب أليم . وهذا دليل آخر على أن هم يوسف كان لقصد السوء لا للفحشاء ، لأنها قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ولم تقل ما جزاء من أراد بأهلك فاحشة ، ولكنها أخبرت بالحالة التى رأتها من يوسف على وجه الحقيقة ، وهو فى دفاعه عن نفسه لم ينفصل من إرادة السوء بها بل ذكر السبب الذى حمله على هذا فقال هى راودتنى عن نفسى فلم أفعل وأردت اساءتها لأمنعها وهنا يقول بعض المفسرين إن امرأة العزيز لو لم تتقدم بالشكوى لسكت يوسف وستر أمرها !

أشكلت الحادثة على العزيز لأنها وقعت فى داخل البيت والأبواب مغلقة، فتقدم شاهد ذو فراسة وذكاء وفطنة وكان قريباً لامرأة العزيز وقال له انظر فأن وجدت قميصه قد من الأمام فصدقت وهو من الكاذبين لأن هذا يدل على أنه أراد الاعتداء عليها فقاومته فقد القميص من الأمام طبعاً ، وإن وجدت قميصه قد من الخلف فكذبت وهو من الصادقين لأنه يدل على أنه هرب منها فأسرعت وراءه وتعلقت بقميصه . وكان هذا هو الواقع ، فلما

رأى قميصه قد من دبر قال : إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ، ثم قال : يوسف أعرض عن هذا (ولا تحدث به أحداً) و قال مخاطباً زوجته : واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين .

يؤخذ من هذه القصة مايأتى :—

(١) ليست هذه القصة مسوقة لبيان خطأ الأنبياء بل لتتعلم منها الحكم الاجتماعية والقواعد العمرانية والعمل بالقرائن فيما يشكل من الأمور وأن نقابل الاحسان بالأحسان لا بالأساءة .

(٢) هذا الموقف المشرف من يوسف عليه السلام وأنه لم يقبل مطلقاً أن يطاوع زوجة سيده مع توفر الدواعى وعدم وجود المانع وخاف الله تعالى وحده وراقب ربه ، فيجب على الأنسان أن يراقب الله فى عمله ويعتقد ذلك وينفذه عمليا فى كل مايقوم به من الأعمال .

(٣) اسداء النصح لمن يتصلون بك بصلة القربى أو الجوار أو الصداقة أو العمل أو الخدمة .

(٤) التغاضى عن اللذة والسرور المؤقت الذى تعقبه الحسرة والندامة .

(٥) خيانة المرأة لزوجها ظلم وكفر بالأحسان .

(٦) المخلص فى عمله إذا اتقى الله نجاه وكافأه على هذا الأخلاص ورفعه الى درجة الملوك والأمراء .

(٧) التوقى من كيد النساء ومكرهن والتثبت فى تصديقهن عند غضبهن .

(٨) من المقاصد الشريفة أن يعمل الشخص على نفى التهمة الباطلة عن

نفسه وأن يظهر براءته للملأ ولا يترك الناس تخوض فى شأنه ولا سيما إذا كان ممن يقتدى به .

(٩) المهم والجدير بالاعتبار والذى أريد أن أنبه العامة والخاصة إليه هو أن مخالطة الرجال الأقوياء من الخدم وغيرهم لربات البيوت والخلوة بهن مدعاة للفساد والفجور وأنه لا يليق بمسلم بل لا يليق بأنسان أن يجعل فى بيته شابا بالغا يخدم امرأته ويختلى بها ، فأن لكل من الرجل والمرأة خواص وطبائع وغرائز أودعها الله فيه ، والعصمة لله وحده ، وعلى العاقل أن يعمل بقول أبى العلاء المعرى رحمة الله عليه :

إذا بلغ الوليد لديك عشراً فلا يدخل على الحرم الوليد

المحاضرة الثانية :

بسم الله الرحمن الرحيم

تكلم بعض المفسرين فى قوله تعالى « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » وقالوا إن يوسف هم بالفاحشة ولكنه لم يفعل لرؤية البرهان . لم يلق هذا القول تأييداً من المحققين لوجوه :

(١) أن الزنا من منكرات الكبائر . والخيانة فى معرض الأمانة من منكرات الذنوب . ومقابلة الأحسان بالأساءة جرم عظيم . والصبي إذا تربى فى حجر إنسان وبقى عنده حتى شب وكبر فاقدامه بعد ذلك على إيصال أقبح أنواع الأساءة لذلك المنعم يكون من منكرات الأعمال . فهذه المعصية التى نسبت إلى يوسف عليه السلام لو نسبت إلى أفسق خلق الله وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منها فكيف يجوز اسنادها لرسول عظيم !

(٢) أن الأنبياء متى صدرت منهم زلة أو هفوة استعظموا ذلك واتبعوها باظهار الندامة والتوبة ولو كان يوسف أقدم على هذه الكبيرة لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة ولو أتى بالتوبة لحكى الله عنه إتيانه بها، وحيث لم يوجد شيء من ذلك، علمنا أنه ما صدر عنه فى هذه الواقعة لا ذنب ولا معصية !

(٣) كل من كان له تعلق بتلك الحادثة شهد ببراءة يوسف ، والذين لهم تعلق بها هم يوسف وتلك المرأة وزوجها والنسوة والشهود والله تعالى وأخيراً إبليس .

أما بيان أن يوسف ادعى البراءة من الذنب فهو قوله تعالى حكاية عنه « هى راودتنى عن نفسى » وقوله « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه »

وأما بيان أن المرأة اعترفت ببراءته فلأنها قالت للنسوة « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » وقالت « الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين »

وأما بيان أن العزيز أقر ببراءة يوسف فهو قوله تعالى « إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم »

وأما شهادة النسوة ببراءته فقوله تعالى « قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء » وأما الشهود فقوله تعالى « وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » وتبين أن القميص قد من الخلف .

وأما شهادة الله له بالبراءة فقوله « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » وشهد فى هذه الآية على طهارته أربع مرات (أولها) قوله لنصرف عنه السوء واللام للتأكيد والمبالغة (وثانيها) قوله والفحشاء أى لنصرف عنه الفحشاء (وثالثها) قوله إنه من عبادنا مع أنه تعالى قال « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » (ورابعها) قوله المخلصين: وفيه قراءتان تارة باسم الفاعل وتارة باسم المفعول . فاسم الفاعل يدل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الأخلاص واسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه

واصطفاه لحضرته . وعلى كلا الوجهين فأنه من أدل الألفاظ على كونه منزها عما أضافوه اليه ! وأما اقرار إبليس ببراءته فقوله « فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » فكان هذا إقرارا من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريق الهدى. وعند هذا نقول إن الذين نسبوا إلى يوسف هذه الفضيحة إن كانوا من أتباع دين الله فليقبلوا شهادة الله على طهارته وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته . ولعلهم يقولون كنا أول الأمر تلامذة إبليس إلى أن تخرجنا عليه فسبقناه! فثبت بهذه الدلائل براءة يوسف عليه السلام مما نسب إليه وحينئذ لم يبق للمسلم توقف فى هذا الباب !

وأما البرهان الذى رآه يوسف عليه السلام فى قوله تعالى « لولا أن رأى برهان ربه » فالمحققون المثبتون لعصمة الأنبياء فسروه بوجوه :

(١) أنه حجة الله تعالى فى تحريم الزنا والعلم بما على الزانى من العقاب .

(٢) أن الله تعالى طهر نفوس الأنبياء عليهم السلام من الأخلاق الذميمة بل طهر نفوس المتصلين بهم فقال تعالى « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » فالمراد برؤية البرهان هو حصول تلك الأخلاق وتذكير الأحوال الرادعة لهم عن الأقدام على المنكرات .

(٣) أنه رأى مكتوبا فى سقف البيت « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا »

(٤) إنه النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش والدليل عليه أن الأنبياء بعثوا لمنع الخلق عن القبائح فلو أنهم منعوا الناس عنها ثم أقدموا عليها لدخلوا تحت قوله تعالى « يا أيها الذين آمنو لم تقولون مالاتفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » وقد عير الله اليهود بقوله « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » وما يكون عيبا فى حق اليهود كيف ينسب إلى الرسول المؤيد بالمعجزات !

والذين نسبوا المعصية إلى يوسف عليه السلام ذكروا فى تفسير البرهان أموراً:

(١) قالوا إن المرأة قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت فى زاوية البيت فسترته بثوب ، فقال يوسف لم فعلت ذلك قالت استحى من إلهى هذا أن يرانى على معصية فقال يوسف أتستحين من صنم لا يعقل ولا يسمع ولا أستحى من إلهى القائم على كل نفس بما كسبت ، فو الله لا أفعل ذلك ابداً !

(٢) إنه تمثل له يعقوب فرآه عاضا على أصابعه ويقول له أتعمل عمل الفجار وأنت مكتوب فى زمرة الأنبياء . فاستحى منه !

(٣) إنه سمع فى الهواء قائلا يقول يا ابن يعقوب لا تكن كالطير يكون له ريش فأذا زنى ذهب ريشه !

(٤) قالوا إن يوسف عليه السلام لم ينزجر برؤية صورة يعقوب حتى ركضه جبريل عليه السلام على ظهره فلم يبق فيه شيء من الشهوة إلا خرج والعجب أنهم نقلوا أن جروا دخل حجرة النبي صلى الله عليه وسلم وبقى هناك بغير علمه . فامتنع جبريل من الدخول عليه أربعين يوما ، وههنا زعموا أن

يوسف عليه السلام حال اشتغاله بالفاحشة ذهب إليه جبريل ، وزعموا أيضا أنه لم يمتنع عن الفاحشة بسبب حضوره حتى احتاج جبريل إلى أن يركضه على ظهره !! ولو أن فاسقاً اشتغل بمنكر فدخل عليه رجل فى زى الصالحين لاستحى منه ، فكيف برسول عظيم ، فكل هذا كلام لا أصل له ، نسأله تعالى أن يصوننا عن الغى فى الدين وعن الخذلان فى طلب اليقين .

قال الله تعالى « وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها فى ضلال مبين » وقال نسوة فى المدينة وهن أربع : امرأة ساقى العزيز وامرأة خبازه وامرأة صاحب سجنه وامرأة صاحب الدواب وزاد مقاتل وامرأة الحاجب ! وشاعت تلك الواقعة فى البلد واشتهرت وتحدث بها النساء وقلن امرأة العزيز تلك المرأة العظيمة تراود فتاها عن نفسه ذلك الحدث الشاب قد شغفها حبا ! والشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال شغفت فلانا إذا أصبت شغافه أى دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب أو أن حبه أحاط بقلبها كإحاطة الشغاف فلا تعقل سواه ولا يخطر ببالها إلا إياه ، أو الشغاف حبة القلب وسويداؤه ، وبالجملة فهذا كناية عن الحب الشديد والعشق العظيم .

وقرأ جماعة شعفها حبا يقال شعفه الهوى إذا بلغ إلى حد الاحتراق ، وقال ابن الانبارى الشعف رءوس الجبال ومعنى شعف بفلان إذا ارتفع حبه إلى أعلا المواضع من قلبه : فلما سمعت قولهن هذا اتخذت مائدة ودعت جماعة من أكابرهن وأعتدت لهن متكأ وهو ما يتكأ عليه فى المجلس وآتت كل واحدة

منهن سكينا لأجل قطع اللحم والفاكهة وأمرت يوسف عليه السلام بأن يخرج إليهن ويعبر عليهن فلما رأينه أكبرنه وأعظمنه، وقطعن أيديهن ودهشن فكانت الواحدة منهن تظن أنها تقطع الفاكهة وإذا بها تقطع يد نفسها! وكان يوسف فى الحسن كالقمر ليلة البدر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم

قالت «فذلكن الذى لمتننى فيه» فأنهن بنظرة واحدة لحقهن أعظم مما نالها فكيف بها وهو عندها مقيم! ولما ظهرت براءة يوسف للعزيز لم يتعرض له فاحتالت المرأة عليه وقالت إنه يقول للناس إنى راودته عن نفسه وأنا لا أقدر على إظهار عذرى فأما أن تأذن لى فأخرج وأعتذر وإما أن تحبسه كما حبستنى، فرأى العزيز أن الأصلح حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث، وقد اختار يوسف السجن أيضا حيث قال «رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه»

قال الله تعالى «ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه، نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين» وقبل الكلام على هذه الآية نبدأ بمقدمة فى التعريف بعلم تفسير الرؤيا أو تفسير الأحلام فنقول: قال الله تعالى «لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة» قال بعض المفسرين يعنى الرؤيا الصالحة يراها الإنسان أو ترى له فى الدنيا، وفى الآخرة رؤية الله تعالى، وقال عليه السلام من لم يؤمن بالرؤيا الصالحة لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وقالت عائشة رضى الله عنها أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا

الصالحة فى النوم. فكان لايرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح .وأولى مايكون التعبير بالقرآن والسنة إن وجد المعبر فيها شاهداً الرؤيا كمن يرى نفسه فى السفينة ، فالسفينة نجاة من الخوف قال الله تعالى « فنجيناه وأصحاب السفينة » وكمن يرى فى منامه أنه وقع فى بئر فأنه يمكر به لقوله عليه السلام البئر جبار وقد يكون التعبير بالشعر كمن يرى غنما ترعى فأتى الذئب عليها ففرقها وقتل بعضها فأن ذلك يدل على أن سلطان تلك الناحية يضيع رعيته حتى يتولى أمرهم عدوه لقول بعض الشعراء.

ومن رعى غنما فى أرض مأسدة ونام عنها تولى رعيها الأسد

والرؤيا ثلاثة أقسام :رؤيا بشرى من الله وهى الرؤيا الصالحة ، ورؤيا تحذير من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه . فرؤيا تحذير الشيطان هى الباطلة التى لا اعتبار لها كما ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فقال يا رسول الله رأيت كأن رأسى قطع وأنا أتبعه فقال لا تتحدث بتلاعب الشيطان بك فى المنام .

والرؤيا الحق خمسة أقسام :—

(١) الصادقة الظاهرة مثل رؤياه عليه السلام أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين غير خائفين يطوفون بالبيت : لأنها من الله تعالى من غير صنع ملك الرؤيا ولا تفسير لها ، وصريح الرؤيا لايريه إلا البارى .

(٢) الرؤيا الصالحة لقوله عليه السلام خير ما يرى أحدكم فى منامه أن يرى ربه أو نبيه أو يرى أبويه مسلمين فقالوا يا رسول الله وهل يرى أحد ربه قال السلطان هو الله تعالى .

(٣) مايريكه ملك الرؤيا واسمه صديقون على حسب ماعلمه الله تعالى من نسخة أم الكتاب وألهمه من ضرب أمثال الحكمة .

(٤) الرؤيا المرموزة وهى من الأرواح : ومثالها أن انسانا رأى فى منامه ملكا من الملائكة قال له إن امرأتك تريد أن تسقيك السم على يد صديقك فلان فعرض له من ذلك أن صديقه زنى بامرأته ، وإنما دلت رؤياه على هذا لأن الزنا مستور كما أن السم مستور .

(٥) الرؤيا التى تصح بالشاهد ويغلب الشاهد عليها فيجعل الشر خيراً والخير شراً ، كمن يرى أنه يضرب الطنبور فى المسجد فأنه يتوب إلى الله تعالى من الفحشاء والمنكر ويفشو ذكره ، وكمن يرى أنه يقرأ القرآن فى الحمام أو يرقص فأنه يشتهر فى أمر فاحش أو يقود لأن الحمام موضع كشف العورات ولا تدخله الملائكة . ورؤيا الحائض والجنب تصح لأن الكفار والمجوس لا يرون الغسل وقد عبر يوسف عليه السلام رؤيا الملك وهو كافر ، ورؤيا الصبيان تصح لأن يوسف عليه السلام كان ابن سبع سنين ورأى رؤيا فصحت ، وأصدق الرؤيا ما كان بالأسحار وأصدق الرؤيا رؤيا النهار ، قال جعفر الصادق أصدق الرؤيا القيلولة ، والميت فى دار حق فقوله كله حق وكذلك الطفل الذى لا يعرف الكذب وسائر الحيوان العجم إذا تكلم فى المنام فقوله حق ، وكل كذاب فى اليقظة كالمنجم والكاهن فهو كاذب فى المنام وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً . وقد يرى الأنسان الشىء لنفسه وهو لغيره من أقاربه أو شقيقه أو والده أو زوجته ، كأبى جهل بن هشام رأى فى

المنام أنه دخل فى دين الأسلام وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ذلك لابنه ، وأن أم الفضل أتت النبي صلى الله عليه وسلم وقالت يارسول الله رأيت أمراً فظيعاً فقال عليه السلام خيراً رأيت فقالت رأيت بضعة من جسدك قد قطعت ووضعت فى حجرى فقال رسول الله مبتسما ستلد فاطمة غلاما وتأخذيه فى حجرك فأتت فاطمة رضى الله عنها بالحسن وأخذته أم الفضل فى حجرها ! ومن أراد أن تصدق رؤياه فليحدث الصدق ويحذر الكذب ويستحب له أن ينام على وضوء لتكون رؤياه صالحة. والرجل إذا كان غير عفيف يرى الرؤيا ولا يذكر شيئا منها لضعف نيته وكثرة ذنوبه ومعاصيه وينبغى للمعبر إذا قصت عليه الرؤيا أن يقول خيراً رأيت وخيراً نلقاه وشراً نتوقاه خير لنا وشر لأعدائنا الحمد لله رب العالمين اقصص رؤياك ، وليكن عالما فطنا ذكيا نقيا من الفواحش عالما بكتاب الله وحديث الرسول ولغة العرب ولا يعبر الرؤيا فى وقت الاضطرار وهى ثلاثة عند طلوع الشمس وعند غروبها وعند الزوال ، وإذا سأل سائل عن رؤيا عناداً ولم يكن قد رآها فلا يترك المعبر سؤاله بغير جواب فأنه إن كان خيراً فمصروف إلى المعبر وان كان شراً فمصروف إلى المعاند !

وأصل الرؤيا جنس وصنف وطبع فالجنس كالشجر والسباع والطير وهذه رجال : والصنف أن تعلم أى صنف تلك الشجرة وذلك السبع والطير : فان كانت نخلة كان ذلك الرجل من العرب لأن منابت أكثر النخل بلاد العرب وإن كان الطائر طاووسا كان رجلا من العجم . والطبع أن تنظر ما طبع تلك الشجرة فتقضى على الرجال بطبعها فأن كانت جوزاً قضيت على الرجل

بالعسر فى المعاملة والخصومة عند المناظرة ، وإن كانت نخلة قضيت بأنه رجل نفاع بالخير ، وإن كان طائراً علمت أنه رجل ذو أسفار ثم نظرت فى طبعه فأن كان طاووسا كان ملكا أعجميا ذا جمال ومال وكذلك إن كان نسرا كان ملكا وإن كان غراباً كان رجلا فاسقا غادراً كذابا !

وللمعبرين طرائق قدداً فى استخراج التأويل وذلك غير محصور بل هو قابل للزيادة باعتبار معرفة المعبر وكمال حذقه وديانته والفتح عليه بهذا العلم والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . وحسبنا ماذكرنا من هذا العلم الآن ولنعد إلى ما كنا فيه من الكلام على صاحبي يوسف : كان للملك الأكبر بمصر غلامان أحدهما صاحب طعامه والثانى صاحب شرابه فضمن لهما جماعة من أهل مصر ما لا ليسما الملك فى طعامه وشرابه فأجابا إلى ذلك ، ثم إن الساقى نكل ومضى الخباز فسم الخبز ، فلما حضر الطعام قال الساقى لا تأكل أيها الملك فأن الخبز مسموم ، فقال الخباز لا تشرب أيها الملك فأن الشراب مسموم ، فقال الملك للساقى اشربه فشربه فلم يضره وقال للخباز كله فأبى فجرب بدابة فهلكت فأمر بحبسهما : ولما دخل يوسف السجن قال لأهله إنى أعبر الأحلام ! فقال الساقى أيها العالم إنى رأيت كأنى فى بستان فأذا بأصل عنبة حسنة فيها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدى فعصرتها فيه وسقيتها الملك فشربه ، وقال صاحب الطعام إنى رأيت كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها خبز وألوان الأطعمة وإذا سباع الطير تنهش منه : فقال بعد كلام حكى الله عنه فى القرآن « ياصاحبى السجن أما أحدكما

فيسقى ربه خمراً » قال لصاحب الشراب ما أحسن ما رأيت أما حسن العنبة فهو حسن حالك عند الملك وأما الأغصان الثلاثة فثلاثة أيام تنقضى يوجه اليك الملك عند انقضائها فيردك إلى عملك وتصير أحسن مما كنت . وقال للخباز بئسما رأيت ! السلال الثلاثة ثلاثة أيام تمضى ويطلبك الملك بعدها فيقتلك وتصلب وتأكل الطير من رأسك » قضى الأمر الذى فيه تستفتيان »

وقال يوسف للساقى عند خروجه « اذكرنى عند ربك » فأنى مظلوم فى حادثة امرأة العزيز فأنساه الشيطان أن يذكر الله تعالى ولا يعرض حاجته على أحد سواه وعوقب على هذا بأن لبث فى السجن بعدها سبع سنين، وحين قال هذا القول كان له فى السجن خمس سنين .

وأعلم أن الاستعانة بالناس فى دفع الظلم جائزة فى الشريعه إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهو وإن كان جائزاً لعامة الخلق إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية ولا يشتغلوا الا بمسبب الأسباب سبحانه وتعالى . قال الأمام فخر الدين الرازى رضى الله عنه والذى جربته من أول عمرى لغاية الآن وقد بلغت إلى السابع والخمسين أن الأنسان كلما عول فى أمر من الأمور على غير الله صار ذلك سبباً إلى البلاء والمحنة والشدة وإذا عول على الله ولم يرجع فى ذلك إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه. فعندهذا استقر قلبى على أنه لا مصلحة للأنسان فى التعويل على شىء سوى فضل الله تعالى وإحسانه .

وإذا أراد الله شيئا هيأ له أسباباً ، فلما دنا الفرج على يوسف رأى الملك

سبع بقرات خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ولم يظهر عليهن شيئاً ، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعاً أخر يابسات فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ، فسأل المعبرين فقالوا هذه أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين فذكر الساقى يوسف وقال للملك إن فى الحبس رجلا صالحاً كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلها وصدق فى الكل وما أخطأ فى حرف فأن أذنت مضيت إليه وجئتك بالجواب ، فذهب إليه وقص عليه رؤيا الملك فقال تزرعون سبع سنين متوالية فما حصدتم فذروه فى سنبله لحفظه من السوس وما أردتم أكله فادرسوه ثم يأتى من بعد ذلك سبع سنين شداد مجدبات يأكلن ما قدمتم لهن من الحبوب المتروكة فى سنبلها إلا قليلا مما تحصنون أى تجعلونه مبذور الزراعة ثم يأتى بعد هذه السنين عام فيه يغاث الناس أى يمطرون من الغيث وفيه يعصرون العنب والقصب والزيتون والسمسم وغيرها ، والمعنى أنه فيه عام رخاء كثير .

وأحكام هذا العام المبارك ليست فى رؤيا الملك فمن أين أتى بها يوسف عليه السلام ! هنا رأيان :

(الأول) أنه تلقاها من الوحى فبشرهم بها .

(والثانى) أنه لما كانت العجاف سبعا دل ذلك على أن السنين المجدبة لا تزيد على السبع ومن المعلوم أن الحاصل بعد انقضاء القحط هو الخصب فهو من مدلولات المنام .

رجع الشرابى إلى الملك وعرض عليه التعبير الذى ذكره يوسف فاستحسنه وقال ائتونى به، وهذا يدل على فضيلة العلم فأنه كان سبباً لخلاصه من المحنة، فعاد الشرابى إلى يوسف وقال أجب الملك فأبى أن يخرج من السجن إلا بعد أن ينكشف أمره وتظهر براءته للملأ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى اشترطت عليهم أن يخرجونى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال له ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن ما لبث لأسرعت الأجابة وبادرتهم إلى الباب ولما ابتغيت العذر إنه كان حليما ذا أناة. والذى فعله يوسف من الصبر والتوقف إلى أن تفحص الملك عن حاله هو اللائق بالحزم والعقل وبيانه من وجوه :—

(١) أنه لو خرج فى الحال فربما كان يبقى فى قلب الملك من تلك التهمة أثرها، فلما التمس من الملك أن يفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته منها، فبعد خروجه لا يقدر أحد أن يتوسل بها الى الطعن فيه.

(٢) أن الانسان الذى بقى فى السجن اثنتى عشرة سنه إذا طلبه الملك وأمر بأخراجه، الظاهر أنه يبادر بالخروج فحيث لم يخرج عرف منه كونه فى نهاية العقل والصبر والثبات وذلك يصير سببا لأن يعتقد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم.

(٣) أن التماسه من الملك البحث عن هذه التهمة يدل على شدة طهارته

إذ لو كان ملوثا بوجه ما لكان خائفا أن يذكر ما سبق . وههنا دقيقة لطيفة فى قول يوسف فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ولم يذكر امرأة العزيز مع أن الحادثة معها هى أولا ! وقد عرفت هى أنه لم يذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها فكافأته على هذا الفعل الحسن وأزالت الغطاء والوكاء واعترفت بأن الذنب كله من جانبها وقالت كلمتها الخالدة « الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين »

ولما قام يوسف ليخرج من السجن دعا لأهله وقال اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار ، فهم أعلم الناس بالأخبار فى كل بلد ، ولما خرج من السجن كتب على بابه (هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء) ثم توجه إلى الملك وقابله فاصطفاه وجعله على خزائن ملكه وألقى اليه مقاليد الأمور .بعدذلك تكلمت الآيات الشريفة عن مجىء اخوة يوسف إلى مصر وذلك أنه لما عم القحط فى البلاد ووصل الى البلدة التى يسكنها يعقوب عليه السلام قالوا إن بمصر رجلا صالحاً يمير الناس فجاء أخوته اليه وهم عشرة رجال ولم يعرفوه ولكنه عرفهم ،أما أنهم لم يعرفوه فأنهم حين رموه فى الجب كان صغيراً وقد كبر الآن وقد تغير زيه وهيئته فانهم رأوه جالسا على سرير وعليه ثياب الحرير وفى عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج من ذهب ، وقد عرفهم هو لأنه سأل عنهم ، أعطاهم الطعام فقالوا إن لنا أبا شيخا كبيراً وأخا بقى معه فى خدمته ولا بد لهما من الطعام فاعطاهم ما طلبوا وقال لهم أحضروا معكم أخاكم فى المرة الثانية وأشار يوسف

عليه السلام إلى بعض خدمه بأن يجعلوا ما أخذه منهم ثمناً للطعام فى رحالهم وفعل هذا كرما وسخاء عليهم ليبعثهم ذلك على العود إليه ، أو خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق مايرجعون به مرة أخرى، أو أرادالتوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان القحط، أو رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إليه ينافى المروءة . رجع اخوة يوسف إلى أبيهم بالطعام وفتحوا متاعهم فوجدوا بضاعتهم ردت إليهم وقالوا لأبيهم إرسل معنا أخانا بنيامين نكتل وإنا له لحافظون وطلب يعقوب من بنيه أن يقسموا له جميعاً ففعلوا وعند ذلك قال « الله على ما نقول وكيل »

قال الله تعالى « وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وماأغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ، ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ». وهذه الآية تقرر مبدأ من المبادىء الاسلامية وهو هل العين حق وتؤثر أم لا وبعبارة أخرى هل نظر العين على صفة خاصة يؤثر فى المنظور اليه أم لا ؟ وههنا شيئان تجب التفرقة بينهما : العين والحسد ! فالحسد تمنى زوال نعمة الغير وهو لا يكون إلا فيما تبغضه أما العين فكما تتوجه إلى المبغوض تتوجه إلى المحبوب كذلك ، فقد يعين الشخص ولده من غير قصد ولا يتمنى وقوع المكروه به أبدا .

وفى الآية ثلاثة أقوال :—

(١) أن يعقوب عليه السلام لم يأمن على بنيه أن يخافهم الملك الأعظم على ملكه فيحبسهم فأمرهم بالتفرق لئلا يتوجه نظر الملك اليهم وهو قول محتمل لا إنكار فيه إلا أنه لم يلق تأييدا من أحد وهو قول أبى على الجبائى.

(٢) أنه عليه السلام كان عالماً بأن ملك مصر هو ولده يوسف ولم يأذن الله له فى إظهار ذلك فامر يعقوب بنيه بالتفرق عند الدخول وكان غرضه أن يصل بنيامين إلى يوسف فى وقت الخلوة : وهذا القول كسابقه ليس فيه قوة وهو قول ابراهيم النخعى .

(٣) أن يعقوب عليه السلام خاف على بنيه من العين أن تصيبهم لأنهم كانوا موصوفين بالكمال والجمال وأبناء رجل واحد واشتهروا بمصر وتحدث الناس بهم وبحسنهم فقال لهم لا تدخلوا تلك المدينة من باب واحدعلى ما أنتم عليه من العدد والهيئة وادخلوا من أبواب متفرقة ، وهو قول جمهور المفسرين.

والعين تؤثر حقا ودليل ذلك العقل والنقل ! أماالعقل : فقد قالت الحكماء ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب هذه الكيفيات المحسوسة أعنى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، بل قد يكون التأثير نفسانيا محضا ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق كما إذا تصور الأنسان شخصا مؤذيا له فأنه يحصل فى قلبه غضب ويسخن مزاجه جدا : فمبدأ تلك السخونة ليس الا التصور النفسانى وإذا ثبت أن تصور النفس يوجب تغيراً فى بدن الشخص لم يبعد أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها إلى سائر الأبدان

فأذاً لا يمتنع فى العقل كون النفس تؤثر فى بدن غيرها والتجارب تساعد على ذلك . وأما الدليل النقلى فما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين فيقول أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة و يقول هكذا كان يعوذ ابرهيم واسماعيل واسحاق صلوات الله عليهم . وورد أن بنى جعفر بن أبى طالب كانوا غلمانا بيضاً فقالت أسماء يا رسول الله إن العين اليهم سريعة أفأسترقى لهم من العين ؟ فقال لها نعم ! ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أم سلمة وعندها صبى يشتكى فقالوا يا رسول الله أصابته العين فقال أفلا تسترقون له من العين ، وعنه عليه السلام العين حق ولو كان شىء يسبق القدر لسبقت العين القدر ، وقالت عائشة رضى الله عنها كان يؤمر العائن أن يتوضأ ثم يغسل منه الذى أصيب بالعين .

وتأثير العين أمر مشاهد محسوس نراه بين أيدينا فى كل وقت فمن أنكر هذا فلا التفات اليه أما كيفية هذا التأثير : فأن الأنسان إذا استحسن شيئا فقد يحب بقاءه كمن استحسن ولده أو بستانه فيحصل عند ذلك خوف شديد من زواله والخوف الشديد يوجب انحصار الروح فى داخل القلب فيسخن القلب والروح جدا ويحصل فى الروح الباصرة كيفية قوية مسخنة فيمتد من العين أجزاء كشعاع النور فتتصل بالشخص المستحسن فتؤثر فيه وتسرى كتأثير اللسع والسم والنار مع اختلاف فى جهة التأثير . أما إذا استحسن الأنسان شيئا يكره بقاءه فأنه يحصل عنده حسد شديد وحزن عظيم بسبب حصول تلك النعمة لعدوه ، والحزن يوجب انحصار الروح فى داخل القلب ويحصل

فيه سخونة شديدة تتصل بالعين فيخرج منها الشعاع ويؤثر فى المنظور اليه كما مر.

ومع ذلك فقد قال الله تعالى « ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شيء » ولو سبق فى علم الله أن العين تصيبهم لأصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم وهم مجتمعون ! لكن خوف يعقوب على بنيه من أن يستحسنهم الناظر وهم مجتمعون وأبناء رجل واحد جعله يأمرهم بالتفرق وقد مدحه الله على هذا العمل فقال « وإنه لذو علم لما علمناه » وأحسن ما قيل فى تفسيرها إنه لذو حفظ لما علمناه فلم تفته هذه اللطيفه فى توصية أبنائه .

أتوا يوسف بأخيه بنيامين فأكرمهم وأضافهم ولما عزموا على الرحيل جهزهم ووفى لهم الكيل ولكنه أراد أن يحتال فى استبقاء أخيه عنده مدة أخرى فجعل السقاية فى رحله وبها كان يكال الطعام للناس ، وفتشت فوجدت السقاية فى رحل بنيامين فأخذه منهم رقيقا جزاء له على هذا الفعل ظاهراً ورجع بعض الأخوة إلى أبيهم وقصوا عليه القصص فقال وقد اشتد حزنه اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه فرجعوا ودخلو على يوسف للمرة الثالثة وأرادوا أن يقدموا بين يديه الأمر الذى جاءوا من أجله فقالوا : يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر (من الفقر والحاجة وكثرة العيال وقلة الطعام) فتصدق علينا ! قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه وتبسم فأبصروا ثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم ووضع التاج عن رأسه وكان فى مفرقيه علامة ليعقوب واسحاق مثلها تشبه الشامة فعرفوه : قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا أنه من يتق (معاصى) الله ويصبر (على أذى الناس)

فأن الله لا يضيع أجره . قالوا تا لله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ، قال لاتثريب (لا لوم ولا توبيخ عليكم وقد عفوت عنكم) يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . وأعطى قميصه لأخيه يهوذا وقال اذهب به إلى أبى و بشره بحياتى فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا : قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ، قال سوف أستغفر لكم ربى ، فوعدهم بالاستغفار ليعرف هل تابوا مخلصين أم لا ، فلماعرف بعد ذلك إخلاصهم فيها استغفر لهم.

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادتى الكعبة يوم الفتح وقال لقريش ما تظنون أنى فاعل بكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت ! فقال أقول ما قال أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم : ولما جاء أبو سفيان ليسلم ، قال له العباس إذا أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتل عليه (قال لا تثريب عليكم اليوم) ففعل ، فقال له الرسول غفر الله لك ولمن علمك . وإن صنيع يوسف عليه السلام مع اخوته هو منتهى الصفح بعد الذى كان منهم ولا غرابة فقد اصطفى الله انبياءه ورسله من صفوة خلقه لهداية الناس وضرب الأمثلة الحية لهم فى السماحة ومكارم الأخلاق .

بعد ذلك حضر يعقوب عليه السلام وذريته إلى مصر واستقبلهم يوسف عليه السلام أحسن استقبال ، ودعا الله بما ورد عنه فى الآية الشريفة التى جعلتها مسك الختام لمحاضرتى :

« رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض ، أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفني مسلماً ، وألحقنى بالصالحين » .